شجرة الأفغاني وعبده التي أثمرت للوطنية ثماراً طيبة عابرة للأجيال!

ملكة اللسان العربي هي التي حققت الانتشار للإسلام وليس الفتح وحده

اللامركزية ومفهوم الانتماء الوطني هما الركيزة عند الأفغاني

| بقلم د. رفعت سيد أحمد- القاهرة

عبر المئتي عام الماضية في تاريخ الأمة العربية؛ كان لإسهامات الكبار من مفكرينا الدور الأبرز في تأسيس معنى وقيم (الوطنية) وأنها لا تتعارض مع أصول الدين بل هي تؤكدها وتزيدها عمقاً ورسوخاً، وأن الترهات التي أتت بها جماعات الإرهاب الإخواني والداعشي التي ابتليت بها الأمة في السنوات العشر الماضية.. والتي تنزع عن الإسلام اعترافه ودفاعه عن القيم (الوطنية) و(القومية) وتعتبرها كفراً وأن من يقتنع أو يدافع عنها.. كافر! لقد جاءت إسهامات مفكري السنوات المئتين الماضية لتؤكد على نقيض تلك الترهات الداعشية ويجعلون من (حب الوطن) والايمان بالوطنية.. ركيزة إسلامية أصيلة.. ومن أبرز هؤلاء يأتي العلامة والرمز السيد (جمال الدين الأفغاني) والإمام محمد عبده.. فماذا عنهما؟

جمال الدين الأفغاني

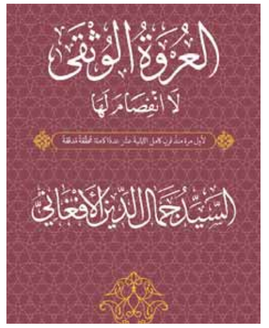

محمد عبده

أولا: إسهامات جمال الدين الأفغاني:

الاشكالية الوطنية

طرح جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ – ١٨٩٧م) رؤيته لإشكالية (الوطنية) من خلال العديد من الآراء والاجتهادات الفكرية والتي وردت متفرقة في ثنايا أعماله (التي نشرت بتحقيق د. محمد عمارة عن دار الكتاب العربي _١٩٦٨)إلا أن أبرز ما يعبر عنها في تقديرنا هو ذلك الحوار المركز الذي جرى بينه وبين السلطان عبد الحميد عما سماه بمفهوم «اللامركزية» بالنسبة إلى بلاد الخلافة العثمانية حيث هذه اللامركزية تعني بالنسبة إليه (الانتماء الوطني) الذي لا يتعارض مع الولاء لمؤسسة الخلافة الإسلامية في مقرها بالأستانة، وهو حوار بيّن مدى النضج والوعي التاريخي الذي تمتع به الأفغاني قبل ما يزيد على مئة وخمسين عاماً مضت، وهو وعي، حسم، إلى حد بعيد التناقض الحديث المصطنع بين الانتماءين: الإسلامي، والوطني، ترى ماذا دار في هذا الحوار، يقول الأفغاني:

– قلت للسلطان أتأذن في تقديم لائحة في تصوراتي لتحسن حالة المملكة والتحوط بصوبها من مطامع الأعداء؟

قال: بل قل لي ما تشاء أن تكتبه بكل حرية وصراحة، فأنا لك من المسامحين.

قلت: أيعتقد جلالة السلطان أن مصر لو بقيت ولاية، ترسل إليها الولاة من الأستانة مثل باكير باشا، ومحمد باشا البدكشي، وأمثالهما – لجمع الأموال من غير وجه، وتوزيعها على رجال الدولة هنا– «الأستانة»– فقط على ما هو مشهور وغير خاف على جلالتكم، هل هو خير لمصر وأهلها وللسلطنة؟ أم جعلها خديوية، كما هي قبل الإنجليز؟!

– فتفكر السلطان ملياً، وحوّل وجهه نحو النافذة عني، حتى ظننت أن الحديث قد ساء، وأنه لا يحب الخوض فيه، ولا العودة إليه، وإذا هو بغتة قد التفت، وتوجه بكليته لي، وكأنه قد انتهى من ذكرى ما جرى من محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا، وكيف أنه كاد أن يستخلص السلطنة العثمانية فتحاً بالقوة. وقال: لو قلنا: إن وجودها خدوية أحسن من بقائها ولاية، ثم ماذا؟!

قلت: يا مولاي، إن السلطنة العثمانية تتألف اليوم من ثلاثين ولاية، فتبدأ فنجعلها عشر خديويات:

فقلت: يـا مـولاي، وعـزة الحـق، وبـولائي لأمير المؤمنين، ونصحي للمسلمين، أن ما ساقني إلى ما قلته إلا الإخلاص والحرص على ملكه، والغيرة على الدولة والممالك الإسلامية الشرقية، التي ليس لجمع شتاتها وتوحيد كلمتها إلا الاعتصام والانضواء تحت لواء الخلافة، وجلالتك ترى أن أجزاء السلطنة آخذة تتفكك، الجزء بعد الآخر، فصار من الواجب نظم الممالك وأجزائها، بسلك من النظام أوثق وأشد وأحكم. وما وجدت ذلك السلك إلا بذلك الشكل الذي قدمته. ولما انتهيت.. هز السلطان رأسه، وتناول لفافة من التبغ، وأسرع في تدخينها – وقال: ماذا تركت، يا حضرة السيد للسلطان؟! وما أبقيت لتخت – (عرش وعاصمة) – العثمان؟

قلت: يبقى مولاي جلالة السلطان: ملك أولئك الملوك، ويبقى إلى العرش العثماني عشرة عروش غير عرش مصر، ثم متى نهضت هذه المقاطعات والخديويات، وأخذت نصيبها من الرقي والعمران.. لاشك في أن إيران تسرع لمقام السلطنة العظمى للالتحاد معها، إذ هي في أمس الحاجة لشد الأزر، ولصون كيانها من مطامع الغرب، الموجهة عموماً نحو عموم دول الشرق، ثم ما أسرع الأفغاني للانتظام في ذلك السلك، سلك اجتماع كلمة دول الشرق الإسلامية تحت راية الخلافة العظمى والسلطنة الكبرى، ثم ومتى تم ذلك، هل يقعد أهل الهند عن نصرة الخليفة الأعظم والالحاق لشد ساعد إخوانهم ليدفعوا غارة الغرب عن الدول الإسلامية في الشرق، وعن هندهم أيضاً؟ أو ينهضون نهضة الرجل الواحد للتخلص من ربقة الاستعمار والمستعمرين ويرجع الشرق للشرقيين.

يرى د. محمد عمارة أن ذلك هو «مشروع اللامركزية» الذي سعى إليه الأفغاني، والذي عرضه على السلطان عبد الحميد، وهو الذي يزكي ما كتبه في (العروة الوثقى) عن أن «الدولة» الإسلامية هي اتحاد يشبه «الكومنولث» وليست رابطة مركزية تقهر ما في إطارها من تمايزات، وهو ما يعني في تقديرنا استقلالية في دوائر الانتماء، ودوائر الوطنية، وهي استقلالية وإيجابية وتكاملية، ولقد كتب الأفغاني في (العروة) عن هذا التصور «اللامركزي – التضامني» يقول: «لا أتمنى بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً، فإن هذا ربما كان عسيراً، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه.

العلاقات التفاعلية

إن هذه الرؤية تركز على علاقات التفاعل، دون تجاهل لدوائر الصدام الطبيعي أو المصطنع منذ بداية القرن التاسع عشر، وكان جمال الدين الأفغاني أكثر إدراكاً لخطورة هذه المسألة مع نهاية الدولة العثمانية ومع نهاية القرن التاسع عشر حين استشعر أنها ستكون مثاراً للجدل وفرقة للمسلمين فتبه الخليفة العثماني إلى ضرورة أن تكون (العربية) هي لسان العرب والمسلمين تمهيداً لوحدة العروبة والإسلام، واستشهد الأفغاني بالتاريخ فكان يرى أن كل من دان بالإسلام أو رضي بدفع الجزية عند الفتح العربي قد سارع على طيب خاطر وارتياح عظيم إلى التعريب» والسبب في ذلك أن وفود العرب (إلى البلاد المفتوحة) حملت معها أخلاقاً فاضلة ظهرت أفضليتها بأجلى المظاهر، مثل الأنفة من الكذب، والوفاء بالعهد، ومطلق العدل، وكمال الحرية، والمساواة الحقيقية بين الملك والسوقة، وإغاثة الملهوف، والكرم، والشجاعة، وباقي الفضائل، من الهيئات المتوسطة بين الخلال الناقصة.

اللسان العربي

ويرى الأفغاني أن انتشار اللسان العربي، فيما عدا بلادهم (شبه الجزيرة) ليس للفاتحين أدنى دخل فيه، ولا اتخذوا له أسباباً ووسائل، بل إن ما وجد في اللسان العربي من الآداب الباهرة والحكم والأمثال والمواعظ، ذلك هو الذي أحله من الانتشار هذا المحل.

ثم يؤكد الأفغاني رؤيته قائلاً: إن لكل دين لساناً، ولسان دين الإسلام العربية، ولكل لسان آداب، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق، وعلى حفظها تتكون العصبية، ولقد أهمل الأتراك أمراً عظيماً وحكمة نافعة – وهي قبول اللسان العربي لسان الدولة (المصدر: جمال الدين الأفغاني، العربية لسان الإسلام والمسلمين – مجلة الحوار – العدد الثاني – صيف ١٩٨٦م، فيينا). ص: ١٦٢ – ١٦٣).

بل إن الأفغاني يتقدم خطوات واسعة في تأكيده مفهوم (الوطنية) عندما يعلن: «لا جامعة لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا آداب لهم، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمي وتحيي آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم، وتنسج على منوالهم، وهذا كله يتوقف على تعليم وطني، تكون بدايته «الوطن»، ووسطه «الوطن» وغايته «الوطن»!.. فيجب أن يكون الوطن في مفهوم الشرقيين كقاعدة حسابية: اثنان، فاثنان يعملان: أربعة، فلا تستطيع المذاهب أو الطوائف أن تدعمها خاصة، ولا أن تحاول نقضها (المصدر السابق ١٦٨).

وفقاً لهذه الرؤية الأفغانية، فإن دوائر الوطنية والقومية والإسلامية قد تداخلت وتكاملت دون تعارض بشكل حضاري متسق كان له تأثيراته الواضحة على الكثيرين في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

ثانياً: شجرة الإمام محمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥م) الوارفة:

كان الإمام محمد عبده من أخلص تلاميذ جمال الدين الأفغاني، وإن ظل يعبر عن الجانب الإصلاحي والتوفيقي في فكر الأفغاني، وصار امتداداً لهذا الجانب أكثر من غيره من الجوانب، ولقد انعكس هذا الأمر على رؤيته لإشكالية الوطنية، فنراه يوافق عليها في إطار الانتماء الإسلامي الأشمل، ولكنه يحذر منها في الوقت ذاته تحت دعوى احتمالات افتراس الدول الأوروبية لتلك الدول التي تنادي بالاستقلال عن مؤسسة الخلافة، ونجد هذا المعنى واضحاً عند إثارة الأفغاني لفكرة (الخلافة العربية) في شبه الجزيرة (نجد والقطيف واليمن) بمعزل عن السيطرة الكاملة للأتراك العثمانيين، هنا نجد محمد عبده يؤيد المشروع ويحذر منه في الوقت ذاته فيقول: (إن العرب في نجد أهل لهذا الاستقلال ولكن الترك لا يمكنونهم منه، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عند العرب، فإذا شعروا بذلك أو رأوا بوادر قائلوهم حتى إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوروبا الواقفة لهما بالمرصاد، فاستولوا على الفريقين أو على أضعفهما، وهذان الشعبان هما أقوى شعوب الإسلام فتكون العاقبة إضعاف الإسلام وقطع الطريق على حياته).

بيد أن هذه الوسطية المكبلة بالتحذيرات، التي ميزت فكر الإمام محمد عبده، لم تمنعه، من أن ينتقد وهو في سياق حديثه عن عدم تناقض مفهوم الوطنية مع الإسلام بل أن يكون عنيفاً في نقده لما يسمى «بالسلطة الدينية» والتي يحتج بها دائماً بشأن رفض مفهوم (الوطنية) الذي يقوم في بعض مكوناته على أساس مدني، وهو نقد يبرز أكثر رؤية محمد عبده الإيجابية للوطنية، فهو يرى هنا أنه «ليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر، وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم ليتناول بها من أدناهم، ولن يقولون إن لم يكن الخليفة ذلك السلطان الديني أفلا يكون للقاضي أو للمفتي أو شيخ الإسلام؟ أقول: إن الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية (د. محمد عمارة: الأعمال الكاملة للأستاذ الإمام محمد عبده، بيروت – المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣م، جزء ٣).

إن محمد عبده يزداد وضوحاً في موقفه من السلطة الدينية عندما يرى أن قلبها والإتيان عليها بعد أصلا من أصول الإسلام، وما أجله من أصل قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها، ولقد هدم الإسلام بناء تلك السلطة ومحا آثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم (المصدر السابق ص:٢٨٥).

إن توفيقية محمد عبده، بين الدين والدولة، والوطنية والإسلام، والعقل والوحي، تسببت في إنتاج مدرستين من تلاميذ الإمام، الأولى ويتصدرها رشيد رضا معبراً عن الإسلامية التقليدية، والثانية ويتصدرها قاسم أمين ومحمد حسين هيكل ولطفي السيد وغيرهم ممن لم ير في علمانيته ما يختلف مع إسلامية الإمام، وهكذا أصبح فكر محمد عبده مجالاً خصباً للجدل والتأثير في أجيال متتالية من المثقفين المصريين حتى يومنا هذا لأن شجرة العلم وفقه التجاوز التي غرس بذرتها الإمام محمد عبده... كانت راسخة وارفة عميقة وليست ككل الأشجار في بستان الوطن والإسلام.. لذلك لا تظل وستظل منتجة حتى يومنا هذا (٢٠٢٢) وما سيتلوه من السنين.

«ديجيتال آرت».. فن يحاكي المستقبل والتكنولوجيا

الخطوة الأولى باتجاه هذا الفن في سورية.. ويمهد لمعارض كثيرة قادمة

| سارة سلامة- تصوير: طارق السعدوني

عشرة فنانين شباب قدموا في غاليري جوليا آرت لوحات متميزة بمعرض خاص وجديد باسم «ديجيتال آرت»، يحمل أفكاراً خيالية ورسومات تحاكي المستقبل والتكنولوجيا عبر فن ينظر له متقنوه بأنه صورة للمستقبل وهو فن حقيقي لا تشوبه شائبة.

يدخلنا هؤلاء الشباب في عالم خاص نرى من خلاله عالماً ملوناً ربما إذا توغلنا أكثر فسنلقى الشخوص على حقيقتها بكل جوانبها، شخوص تحاكي العصر وتستشرف المستقبل تجمعت اليوم في معرض خاص لتبين سحرها وتثبت مكاناتها..

عن هذا الفن وما يحمله من تميز ونجاح ومستقبل منظور كان هذا المعرض تحدياً حقيقياً لهم لصنع مكان خاص بالتكنولوجيا الجديدة يعود ريع المعرض لأطفال جمعية بسمة المصابين بالسرطان.

مشاركون

حيث قال محمد أمين المناع: إن مشاركتي بهذا النوع من الفن لها مزايا عديدة لأن: «الديجيتال آرت هو نوع من الفن بعيداً عن الفن اليدوي المسيطر، نحن نقوم بالرسم من خلال طريقة رقمية أو من خلال الحواسيب، ولا نستطيع أن نقدم هذا الفن إذا لم نكن متمكنين يدوياً، نحن نسلط الضوء اليوم على هذا النوع نشهره، ونشجع العالم أن تتعلمه لأنه لا يوجد لدينا اختصاص جامعي لدراسته أكاديمياً ولا يوجد مدربون له، كلنا تعلمنا هذا الفن بمفردنا ومهاراتنا الشخصية، وهو شيء مهم لأنه جزء لا يتجزأ من عالم الترفيه».

بينما قالت أنوار الأخضر وهي خريجة فنون جميلة: «هذا نوع من الفن المعاصر والمختلف له تقنيات معينة تحتاج إلى كمبيوتر أو أجهزة متطورة، وهو فن حقيقي يحتاج إلى مهارات خاصة يحتاج إلى تحليل فني ورؤية فنية ويحتاج إلى فهم للعلاقات البصرية الموجودة باللوحة، ونفكر بالتكوين والتوازن، وأتمنى أن تكون في بصمتي وهويتي الخاصة في هذا المجال».

وقالت ساندرا شريف وهي أيضاً خريجة فنون جميلة: إنني «شاركت بلوحة تحمل رسالة وهي كيف مظلم يحمل التكنولوجيا، في حين الوهم هو الطبيعة والحياة الجميلة والمضيئة البعيدة عن التكنولوجيا، الديجيتال آرت هو فن بحد ذاته يحتاج إلى خبرات وتكنيك خاص به، ونستخدم برنامجاً خاصاً وهو الفوتوشوب فيه التلوين والرسم وكل شيء يدوي».

وبين حسن صلاح الدين أن: «مشاركتي جاءت من خلال لوحة تعكس صورة هذا الفن، وكغيره من أنواع الفنون يختص هذا الفن بطابعه الخاص، نحن نتعلم أساسيات الفن ونطبقها من خلال برامج الرسم، وهناك شركات خاصة في سورية بدأت تولي اهتماماً كبيراً بهذا المجال».

ومن جانبها قالت فاطمة: إن «المعرض كان مفاجأة بالنسبة لي فهو أول معرض أشارك به في حياتي ويختص بالجمال الذي أعمل به، فأنا أصمم لوحات فيها روبوتات وأدخل في تفاصيل كثيرة، هذا الفن حقيقي وأستطيع أن أصور الخطوات كلها التي نعمل بها لندافع عنه».

بينما يقول طوني أيوب وهو خريج هندسة عمارة: «منذ بداية دراستي كنت أحب الجانب الفني أكثر من الجانب الهندسي، لكن الجانب الهندسي هو من ساعدني على تعلم هذه البرامج والتعرف على هذا العالم الرقمي، هذا الفن هو نقلة نوعية إلى عالم المستقبل والتكنولوجيا وطبيعي أن نستهجنه لأن الناس دائماً ترفض الأشياء الجديدة، وأستطيع أن أجعل الناظر يغوص داخل اللوحة ليجد بانتظاره عالماً كاملاً له أبعاده وتشكيلاته وزواياه».

ومن جهتها غزل برجود وهي من زوار المعرض بينت أن «هذا المعرض يحاكي المستقبل وهو الخطوة الأولى باتجاه هذا الفن في سورية، وربما سيكون البداية لمعارض كثيرة قادمة، وأرى أن هذا الفن حتى لو كان من خلال شاشة كمبيوتر فهو يصنع لوحة تحكي هو إبداع حقيقي، وأشجع كل الشباب أن يدخلوا بهذا المجال لأن هذا الفن مطلوب عالمياً حتى في سورية سيكون له مستقبل لأنه فن فريد ومتميز ويحاكي لغة العصر والتكنولوجيا».

عن الفن

والديجيتال آرت» يطلق على كل الأعمال الفنية التي تستخدم فيها التكنولوجيا بشكل أساسي لإنشائها، ومن الأمثلة على الفن الرقمي الرسم باستخدام الفأرة أو لوحة الرسم، لا تعد البيانات الرقمية فناً رقمياً، إلا أنها قد تدخل في تعديل أو إنشاء عمل ما، ما يمكن أن يطلق عليه (فناً رقمياً).

ويعد استخدام هذا النوع من الفن رائجاً جداً في عصرنا هذا بسبب الانتشار الكبير للأجهزة الرقمية في عالمنا، فأصبحت لا تخلو هذه الأجهزة من كل بيت! كما أن البرامج التي تستخدم في هذا المجال تتيح للمستخدم شتى أنواع المواد والمعدات من ألوان وخطوط مجاناً، ومشاركة وحفظ الأعمال الفنية رقمياً أسهل من نقلها من بلد لبلد يدوياً أو عبر البريد في بعض الحالات.

ويعتبر الفوتوشوب من أفضل وأشهر برامج التصميم التي تتيح كل ما يحتاجه الفنان لإطلاق العنان لإبداعه، وبدأت تظهر ملامح هذا الفن في سورية عام ٢٠٠٩.

> الفوتوشوب من أفضل وأشهر برامج التصميم التي تتيح كل ما يحتاجه الفنان لإطلاق العنان لإبداعه